روكس بن زائد العزيزي

مفاهيم عصرية في شعرنا المؤتم*

ايها الاخوان الشرفاء .. ايها الامناء على قيمة الكلمة وشرفها، تحية خالدة ..

كان الشعر ديوان العرب ، ومنذ زال ينال منهم كل رعاية وحفاوة، مع هذا ، فقد ظل الحكم عليه يخضع للذوق ، ذوق الناقد ، وذوق السامع ، وما دام الامر كذلك ، فلا غرابة في اختلاف الاحكام ..

حقا ، انني ما كنت أخوض في بحثي هذا ، لولا سماعي احكاما متجنية ، تنكر على ادبنا المؤتم عامة ، والشعر خاصة ، اية قيمة ، تخدم الانسان ، وكرامة الانسان . وهذا القول المطلق ، او التهمة الجائرة ، انطلق منها الداعون الى اسقاط الشعر المؤتم، جملة ، وتفصيلا ،من حساب الادب .

في حين انه من المسلم به ، ان مجال الشعر في كل عصر من العصور ، انما هو الشعور ولا فرق عندي، بين ان ينبثق ذلك الشعور من التجربة الذاتية ، التي توضح ما في نفس صاحبها من مشاعر واحساسات شخصية ، ام كانت تجربته بمنزلة نافذة ، أطل منها الشاعر على ما في الكون من هموم ، ومشكلات ، تراءت له ، من خلال شعوره الفيّاض ، فحاول ان يجد لها حلولا ، اعانه عليها خياله المجنح ، وشعوره المتدفق .

فالشعر ، كما نعلم ، يخاطب القلب والعواطف والاحساسات ، والشاعر هو ذلك الانسان الذي يستطيع ان يثير احساسات سامعيه ، وقارئيه الى الاعماق ـ اذا كان صادقا ـ وعواطف الناس ما تبدلت، ولا تغيرت ،من اليوم الذي وجدت فيه الحياة على كوكبنا هذا ، الى اليوم .

فالحب ، هو الحب ، ما تغيرت دوافعه ، وان تغيرت اساليبه، والبغض ، هو البغض وان تطورت سبل اظهاره ، والشعر الحق ،عندي ـ ان كان لي عند ، كما يقول الجاحظ ـ هو الذي يشتمل على هذه العناصر :

١ ـ هدف معين .
٢ ـ تجربة صادقة عميقة تعتمد على :
أ ـ مشاعر صادقة فياضة .
ب ـ صور حية .
ج ـ صياغة راقية .
د ـ موسيقى موحية .
٣ ـ ثقافة اصيلة ، تصور العصر الذي عاش اويعيش فيه الشاعر .
٤ ـ اطلاع واسع ، على ما انتج الشعراء من اية مدرسة كانوا .

فاذا اجتمعت هذه العناصر لشاعر ، ولدت في نفسه مشاعر واحساسات ، تجعل لشعره روعة ، وسحرا ، ينتقلان الى نفس سامعه ، وقارئه ، ويصدقان القول المأثور :
« ان من البيان لسحرا »

وفوق هذا ، فلا بد للشعر من الايحاء ، والا كان الكلام نظما لا خير فيه ، لان الشعر في حقيقته ، انما هو كشف عما في نفس الشاعر من استجابات لتأثيرات الحياة والمجتمع والكون ،في نفسه.

فاذا نحن تدبرنا ذلك كله ، رأينا ان الشعراء المؤتمين ،عاشوا مأساة عصرهم وانتصاراته ومجده .

لا انكر ان الشاعر المؤتم ، قد وقف على ابواب الامراء والسلاطين، ووقوفه هذا ، أعده اغترابا مؤقتا عن الشعب وهمومه ، لكن هذا الشاعر كان يعود الى سجيته مشاركا الشعب همومه وآلامه .ودليلنا على ذلك ، ان الشاعر المؤتم كان متفاعلا مع الجمهور ، وكان الشعب يعجب بشعره ، ويطرب له ، وكانت كلمته في الجاهلية وفي صدر الاسلام ، تخفض قوما وترفع آخرين . الامر الذي ثبت له زعامة فكرية،لانه كان مصورا لحياة عصره،ملتزما بمفهوم قومه ، وان توهم بعض النقاد ، ان الشاعر المعاصر ، هو وحده الذي التزم بقضايا قومه الوطنية وهمومهم الانسانية ..

ان الذين ينكرون على الشاعر المؤتم اصالته ، ينسون ان حاضرهم سائر نحو الماضوية وان اصرارهم على انكار فضائل الماضي هو قتل لحاضرهم ، ووأد لمستقبلهم .

التهم التي توجه لادبنا المؤتم والفرض منها :

التهم التي توجه لادبنا المؤتم ، ولا سيما شعره ، كثيرة ، منها انه :

أ ـ ادب شخصي ، لا يتجاوز الضرورات التي يشارك الانسان فيها البهائم ، ومن هنا لا يمكن لادبنا المؤتم ، شعره ونثره ، ان يرقى الى المستوى الانساني ، ـ كما يدّعون ـ الذي يعبر عن الانفعال الذي يسمو فوق الضرورات الشخصية ، فالذين يقولون هذا القول،

(*) كلمة « المؤتم » تعني الادب الذي يقتدى به، والادب الذي ثبتت له الزعامة ، فاتخذه الادباء اماما لهم . والكلمة عندي الطف من كلاسيكي او اتباعي .

يريدون ان يتهموا العقلية العربية ـ في كل زمان ، وفي كل مكان ـ بالعقم ، ويرمون الى اتهام الخيال العربي بالضحولة وضيق الافق ، وكانهم يقولون ضمنا ، ان طبيعة العربي ، مقيدة بطبيعة الحيوان، الاصم ، الابكم ، الذي لا يهتم الا بما تدفعه اليه الغريزة ، بالضرورة، من مأكل ومشرب وجنس .

اجل ، انه اتهام رهيب للغاية وارهب ما فيه ، ان يقتنع ابناؤنا به ، ويؤمنوا بصحته ، فينتكروا لماضي امتهم ، متدرجين من الشعر ، الى الادب عامة ، ثم يصل بهم الامر الى تاريخ الامة ، وكل ما لها من مجد ، ومن خدمة للبشرية ، وفضل على الانسانية .

ب ـ الاتهام الثاني ، ان شعرنا المؤتم ، يخلو من الالتزام .

ج ـ والاتهام الثالث ، ان الحب فيه مادي لا يعدو كونه رسم خرائط خدود ونهود .

د ـ والاتهام الرابع ، انه لا يحس بالطبيعة ، التي هي اول عنصر من عناصر الارتباط بالارض .

هـ ـ والاتهام الخامس ، ان مفهوم الوطنية فيه مفقود .

و ـ والاتهام السادس ، انه لا يواجه مشكلات الحياة ، ولا يعالجها.

ز ـ وشر الاتهامات ، انه ادب او شعر رتيب ، لم يفهم الحرية ، ولم يدع اليها ،وانه في النهاية لم يستبطن الاشياء ، ولم يجسدها، ولا يفيض فيها الحياة .

هذه ، بعض الاتهامات التي توجه الى شعرنا المؤتم ، بل الى ادبنا كله . وسنرى ما فيها من تجن على الحقيقة ، لا نعصبا منا، ولا انحيازا ، ولا انكارا لسنة التطور ، والتجديد ، ولا دعوة للجمود، فانا اؤمن بالتطور والتجديد . وابارك كل تجديد مفيد ، وكل جديد مبتكر ، ولا اقول ما قاله (اناتول فرانس) :« وجدت كل جديد في القديم ، ولم اجد في الجديد شيئا » .

حقا ، اني لست من رأي (اناتول فرانس) ، وان كنت اعظم من شان الادب المؤتم لما حوى من روائع ، تصلح لكل زمان ومكان :

ولكي ابرهن على ما اقول سأتناول الاتهامات التي سبق ان ذكرتها وارد عليها واحدا فواحدا :

الالتزام وشعرنا المؤتم :

الالتزام ، هو مشاركة الشاعر الناس همومهم الاجتماعية والسياسية ومواقفهم الوطنية . والوقوف بحزم ، لمواجهة ما يتطلبه ذلك ، الى حد انكار النفس في سبيل ما التزم به الشاعر او الاديب .. ونحن ، اذا تدبرنا شعرنا المؤتم، وجدنا فيه موقفا خالدة من الالتزام ، نقول للذين يقولون ان شعرنا المؤتم ، بركة راكدة آسنة لا ثورة فيه ، ان في قولهم ، مجافاة للحقيقة ، فاي التزام يفوق التزام :

أ ـ شعراء الحزب الاموي ؟
ب ـ وشعراء الحزب العلوي ؟
ج ـ وشعراء حزب الخوارج ؟

ومثل هذه الاحزاب ، اصحاب النزعة القحطانية ، واصحاب النزعة العدنانية واصحاب النزعة الشعوبية ، الذين جعلوا همهم تدمير العنصر العربي ، وسحق سمعته في كل مجال .

لقد قبل الشاعر الملتزم التجويع ، الذي فرضه بنو امية على خصومهم السياسيين وقلدهم فيه كل من خاف من الكلمة ، واثرها ..

ولعل التاريخ لم يعرف التزاما اشد اصرارا على ما يعتقد صاحبه ، من التزام الخوارج ، رجالا ، ونساء ، فقد قالت ام حكم : « احمل رأسا قد سئمت حمله ، وقد مللت دهنه وغسله ، الا فتى ، يحمل عني ثقله ؟؟؟

ومن ذلك ايضا قول (معاذ بن جوين) يحرض قومه وهو اسير :

الا ايها الشارون ،قد حان لامرىء، شرى نفسه لله ، ان يترحلا
اقمتم بدار الخاطئين جهالة ، وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم آلعداة فانها، اقامتكم للذبح رأيا مضللا
الا فاقعدوا يا قوم للغاية التي اذا ذكرت ، كانت آبر واعدلا
فياليتني فيكم ، على ظهر سابح شديد القصيرى ، دارعا غير اعزلا
فيا رب جمع قد قللت ، وغارة شهدت ، وقرن ، قد تركت مجدلا ...

وقول (قطري بن الفجاءة) في يوم دولاب :

فلم آر يوما ، كان اكثر مقعصا يمج دما ، من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما ، على فتى اغر ، نجيب الامهات ، كريم
اصيب بدولاب ، ولم تك موطنا له ارض دولاب ، وذير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك ، وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية ، بتعوا الاله نفوسهم بجنات عدن ، عنده ونعيم

وقول (عمران بن حطان) في تمجيد (ابن ملجم) الذي اغتال الامام علي ، كرم الله وجهه :

لله در المرادي الذي سفكت كفاه ،مهجة شر خلق الله انسانا
امسى عشية غشاه لضربته ، مما جناه من الآثام ، عريانا

وقول الطرماح :

« وامسى شهيدا ، ثاويا في عصابة يصابون في فج من الارض خائف
فوارس بين شيبان الف بينهم، تقى الله ، نزالون عند الزواحف
اذا فارقوا دنياهم،فارقوا الاذى، وصاروا الى ميعاد ما في المصاحف

اما الحزب العلوي فحسبي ان اذكر موقف الفرزدق في قصيدته(هذا الذي تعرف البطحاء وطأته)

اكتفي من الالتزام بهذه الالمامة، ففيها ما يشير الى ما نحن بصدده « معرضا عن مواقف الاخطل ، لسان بني امية وشاعرهم المدلل .

وانتقل الى قولهم ان الشاعر المؤتم ما عرف الا مادية الحب ، ولم يسم به فوق وصف الخدود والنهود والقدود .

انا لا انكر ان الحب عاطفة تنبع اصلا من غريزة تسود عالم الحيوان، كله ، لكن شعراءنا المؤتمين سموا بها الى مراتب سامية ، فانبثق منه شعراء التصوف ، محاولة الاتصال بالذات الالهية ، والفناء فيها..

فهل في عالم الحب ما هو انبل مما قاله (عمر بن اذنية):

حجبت تحيتها ، فقلت لصاحبي « ما كان اكثرها لنا واقلها »
واذا وجدت لها وساوس سلوة ، شفع الضمير الى الفؤاد فسلها

وقول (جميل بن معمر) المعروف بـ (جميل بثينة) :

وما زلتم يا (بثن) حتى لو انني، من الشوق استبكي الحمام بكى ليا
اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها، دعاء حبيب كنت انت دعائيا
وما زادني الناي المفرق بعدكم ، سئلوا ، ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون الا صبابة ولا كثرة الناهين الا تماديا
لقد خفت ان القى المنية بغتة وفي النفس حاجات اليك ،كماهيا

وقول (يزيد بن الطثرية) :

بنفسي من تو مر برد بنانه على كبدي ، كانت شفاءا انامله
ومن هابني في كل امر وهبته فلا هو يعطيني ، ولا انا سائله

وقول (قيس بن ذريح) :

فان يحجبوها او يحل دون وصلها مقالة واش ، او وعيد امير
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا ولم يذهبوا ما قد اجن ضميري

وقول (كثير عزة) :

وما كنت ادري قبل(عزة)ما البكا ولا موجعات القلب حتى توالت
اسيئي بنا ، او احسني، لا ملومة لدينا ، ولا مقلية ان تقلت
فوالله ، ثم الله ، ما حل قبلها، ولا بعدها ، من خلة حيث حلت

هذا ، ولا اريد ان اخوض في شعر التصوف ، الذي سما بالحب الى درجات مذهلة ، من العشق الالهي ، فهذا (ابن عربي) يقول :

وقد كنت قبل اليوم، انكر صاحبي، اذا لم يكن ديني الى دينه واني
فاصبح قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ، وديرا لرهبان
ادين بدين الحب ، انى توجهت ركائبه ، فالحب ديني ، وايماني

وهذه (رابعة العدوية) التي سبقت الى وضع قواعد الحب ،

والحزن في هيكل التصوف ، فمن كلامها :« محب الله لا يسكن انينه وحنينه ، حتى يسكن مع محبوبه ..»

الهيام بجمال الطبيعة :

اما ردي على الاتهام الرابع فهو حاضر من شعر العصر العباسي، فقد هام بعض شعرائنا المؤمنين بالطبيعة ، وجسدوا محاسنها ، فابن الرومي افاض في الطبيعة الحياة ، فجعلها عشيقة معشوقة ، جعل الشمس تودع الطبيعة حزينة ، فلم يكتف بالظواهر بل سما به الخيال، وسما هو بالخيال ، الى مراتب قصية من الفن الاصيل : فقال :

اذا رنقت شمس الاصيل ونقضت على الافق الغربي ،ورسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها وشول باقي عمرها ، فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خدا ،الى الارض اضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من اوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صورا ، اليها روانيا ويلحظن الحاظا، من الشجو خشعا
وبيّن اغضاء الفراق عليهما كانهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس،فاخضر اخضرارا مشعشعا
واذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنّى مغني الطير فيه فسجعا
وغرد ربعي الذباب خلاله كما حثحث النشوان صنجا مشرعا

فهذه لوحة من رائع الفن ، تجسد الحياة ، بما فيها من حركة والم ، وحزن لفراق الاحبة .

اما تصويره للربيع ، وتجاوزه للزخارف ، فامر يدعو الى الاعجاب بحيث يصوره حياة ، تدب في كل ما خلق في الكون :

تجد الوحوش به كفايتها والطير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطح وحمامه يضحى بمختصم
ان الربيع لكالشباب ، وان الصيف يكسعه لكالهرم

اما وصفه امتزاج روح الطبيعة بهبوب الرياح، ومناجاة الاغصان بعضها بعضا وتنادي الطيور وانتشاءها، فصورة تستهوي النفس ، وتستولي على الفؤاد :

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه موسوسا ، وتنادى الطير اعلانا
ورق تغني على خضر مهدلة تسمو بها وتشم الارض احيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

ويبلغ منتهى الروعة ، وهو يصور الحياة الكامنة في الارض كمون النار في الحجر ، وكانما هو يسمع ما تبوح به الارض من اسرارها ، وما تشكو منه ، اذ يقول :

لم يبق للارض من سر تكاتمه الا وقد اظهرته ، بعد اخفاء
ابدت طرائف وشي من زواهرها، حمرا ، وصفرا ، وكل نبت غبراء

وهو هائم بالطبيعة ، هيام الحبيب بحبيبه ، وكانه يصغي الى الرياض ، وهي تشكو ، وتبكي مما بها من وجد ، وتشدو من شجو ، ومن الم :

تتداعى بها حمائم شتى ، كالبواكي وكالقيان الشوادي
من مثان ، ممتعات قران، وفراد مفجعات ، وحاد
تتغنى القران منهن في الايك وتبكي الفراد شجو الفراد

فوثبة خياله ، التي صورت آلام الوحدة القاتلة ، التي تنحدر دموعا من عيون الذين اوحشتهم الوحدة ، وامضهم الفراق ،يقابل ذلك تغني الذين ينعمون بالحب ولا يروعهم الفراق ، وتسحقهم الوحدة .

ومن هيامه بجمال الطبيعة ، واندماجه بها ، قوله يصف الاغصان، والرياح تحركها :

تلاعبها ايدي الرياح اذا جرت فتسمو ، وتحنو تارة فتنكس
اذا ما اعارتها الصبا حركاتها افادت بها انس الحياة فتانس

ولعل اروع من ذلك ، مزجه ذكريات الشباب ، بجمال الطبيعة ، اذ يقول :

يذكرني الشباب جنان عدن على جنبات انهار عذاب
تفيء ظلها نفحات ريح تهز متون اغصان رطاب
اذا ماست ذوائبها تداعت ، بواكي الطير فيها بانتحاب
يذكرني الشباب رياض حزن ترنم بينها زرق الذبان
اذا شمس الاصائل عارضتها وقد كربت توارى بالحجاب
والقت جنح مغربها شعاعا مريضا ، مثل الحاظ الكعاب
يذكرني الشباب سراة نهي نمير الماء مطرد الحجاب
قرته مزنة بكر ، واضحى نرقرقه الصبا ، مثل السراب
على حصباء ، في ارض هجان كان ترابها ذفر الملاب
له حبك ، اذا اطردت عليه قرات به سطورا في كتاب
تذكرني الشباب صبا بليل رسيس المس لاغبة الركاب
اتت من بعدما انسحبت مليا على زهر اتربى ، كل انسحاب
وقد عبقت بها ريا الخزامى كريا المسك ، ضوع بانتهاب
يذكرني الشباب وميض برق وسجع حمامة وحنين ناب
فيا اسفا ويا جزعا عليه ويا حزنا ، الى يوم الحساب
افجع بالشباب ولا اعزى ؟ لقد غفل المعزي عن مصابي
تفرقنا على كره جميعا ولم يك عن قلي طول اصطحاب
وكانت ايكتي ليد اجتناء واضحت بعده ، ليد احتطاب
ايا برد الشباب ، لكنت عندي من الحسنات ، والقسم الرغاب
بليت على الزمان ، وكل برد فبين بلى ، وبين يد استلاب
وعز علي ان تبلى وابقى ولكن الحوادث لا تحابى
لبستك برهة ، تبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو ملكت صوتك فاعلمنه لمنتك في الحريز من الحباب

فهذا الحنين الى الطبيعة ، والى الشباب الذي يحرك اوتار القلوب ، وهذا المزج اللطيف بينهما ، ينم على قدرة عجيبة غريبة ، وينم على ان الشاعر متصوف من متصوفة الطبيعة فالشاعر يجمع بين الشباب وروعته ، والحب وصفائه ، والطبيعة وجمالها ، لا بل اسرار جمالها الامر الذي يفسح كل فكر على شعرائنا المؤمنين هيامهم بجمال الطبيعة ، الى حد الاندماج يقنعه بخطا حكمه .

من المذهل ، في امر هذا الشاعر المبدع المحلق ، انه لا ينظر الى شيء من الجمال ، الا اخطر ذاك الجمال على باله ، صورة الطبيعة ، وما فيها من محاسن ، فاسمعه يقول :

اجنت تلك الوجد ، اغصان وكثبان فهي نوعان : تفاح ورمان ..
وفوق ذلك اعناب مهدلة سود ، لهن من الظلماء الوان
وتحت هاتيك اعناب تلوح به اطرافهن ، قلوب القوم قنوان
غصون بان ، عليها الدهر ،فاكهة وما الفواكه ، مما يحمل البان
ونرجس ، بات ساري الظل يغربه واقحوان منير النور ريان
الفن من كل شيء طيب حسن فهن فاكهة شتى وريحان

فهذا شاعر مؤتم ، خلاق الاحساس ، لا يكاد يجاري في وثبات خياله ، ومع هذا ، فان هناك من يقول :« ان الشاعر العربي المؤتم ، لا يفهم من الطبيعة الا ظواهرها ومظاهرها في حين ان ابن الرومي

مجسد ومصور للطبيعة ، وليس هو وحده بل يشاركه في ذلك كثيرون، منهم (ابو تمام) و(البحتري) لكننا آثرنا ان نقف عند ابن الرومي، وقفة طويلة لانه ليس هنالك من يجادلنا في عظمته وابداعه . فاسمع وصفه لسير السحائب :

سحائب قيست بالبلاد فالفيت غطاء على اغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات، فاقبلت تهادي ، رويداً سيرها وركودها

واذا اتجهنا الى ابن حمديس الصقلي الذي شرد من بلاده ، فصور آلام اغترابه وتشريده عن اوطانه ، رأيناه يعكس الالم الذي يمض كل قلب ذاق لوعة الانتزاع من دياره . انه لون من الشعر الذي يصور دخائل القلب فيصف ما يعتصر القلب من حزن ، وهي نزعة يكاد يتفرد بها، ونكاد نعدها له ثورة على الشعر الوجداني العربي كله :

هل اقصر الدهر عن تعنيت ذي ادب؟ او قال حسبي من اخمال ذي حسب؟
لا يلحظ الحر ، الا مثلما وقعت ؟ على اخي سيئات، عين ذي غضب،
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه؟ يخوضها كل حين ، جحفل النوب
ان الزمان بما قاسيت شيبني ولم اشيبه هذا ، والزمان أبي

الى ان يقول :

واحر بالحر ان تلقاه ذا جلد وان تبطن داء قاتل الوصب

ومن تعلقه بوطنه قوله :

ذكرت صقلية والاسى يهيج للنفس تذكارها

ومن قوله :

ولو ان ارضي حرة لاتيتها بعزم بعد اتسيير ضربة لازب
ولكن ارضي ، كيف لي بفكاكها من الاسر في ايدي العلوج الغواصب؟
امثلها في خاطري كل ساعة وامري لها قطر الدموع السواكب
احن حنين النيب ، للموطن الذي مغاني غوانيه اليه جواذبي
ومن يك ابقى قلبه رسم منزل تمنى له بالجسم اوبة آئب

لكن مما يؤخذ على الشاعر ، على كل حنينه الى وطنه ـ انه لم يذكر انه يريد ان يكافح لاسترداد هذا الوطن ، اذا ، فقول القائلين ان الشاعر المؤتم لم يحس بجمال الطبيعة ، لا سند له ، وقفزهم من ذلك الى انه غير مرتبط بأرضه ، ولا يحس بحب وطنه قول لا سند له ، ولا دليل صحيح عليه .

اما قولهم ان الاحساس بالوطن ،او مفهوم الوطنية مفقود في شعرنا المؤتم ، فقد ذكرنا ما ينقض قولهم ، بما اوردنا من شعر ابن حمديس .

بقيت قضية الشعر المؤتم ، ومواجهة مشكلات الحياة

لقد واجه الشعر المؤتم الحياة ، وكل ما فيها من خير ، ومن شر ، من فضيلة ورذيلة ، صور الحياة الدينية ، والعادات والمعتقدات، وقد اشار الى ذلك الدكتور محمد الخوفي بلباقة .

النظرة الانسانية في الشعر المؤتم :

لقد عالج الشعر المؤتم القضايا الانسانية ، فنرى زهير بن ابي سلمى في العصر الجاهلي ، يقبح الحرب ، داعيا الى السلم ، من منطلق انساني محض :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها ، تبعثوها ذميمة وتضر ، اذ ضريتموها ، فتضرم
فتعركم عرك الرحى بثقالها وتلقح كشافا ، ثم تنتج ، فتتئم
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كاحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم
فتغل لكم ما لا تغل لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

اما في العصر العباسي ، فنرى ابن الرومي ، يرسم لنا موقفا انسانيا ، وهو يرى الحمال الاعمى :

رأيت حمالا مبين العمى يعثر في الوهد ، وفي الاكم

فاية ذاتية قاصرة على الضرورات في قول زهير ، وفي قول ابن الرومي ؟ بل اية ذاتية قاصرة في وصف الفرزدق للقائه الذئب :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا على الزاد ممشوق الذراعين اطلس
تلمسنا حتى اتانا ولم يزل لدن فطمته امه يتلمس
ولو انه اذ جاءنا كان دانيا لالبسته لو انه كان يلبس
ولكن تنحى جنبة بعدما دنا فكان كقيد الرمح ، اوهو انفس
فقاسمته نصفين بيني وبينه بقية زادي ، والركائب ، نعس
وكان ابن ليلى، اذ قرى الذئب زاده، على طارق الظلماء ، لا يتعبس

ومثل ذلك قوله ايضا :

واطلس عساّل ، وما كان صاحبا دعوت بناري موهنا ، فاتاني
فلما دنا ، قلت : ادن دونك، انني واياك في زادي لمشتركان
فبت اسوي الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ، ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش ، فان واثقتني ، لا تخونني نكن، مثل من ياذئب يصطحبان
وانت امرؤ ـ يا ذئب ـ والغدر كنتما اخيين ، كانا ارضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى ، اتاك بسهم ، او شباة سنان
وكل رفيقي كل رحل ، وان هما تعاطى القنا قوما هما ، اخوان

يقينا ، ان مثل هذه العاطفة الانسانية السامية ، نحو وحش مفترس ، لا يمكن ان تنبع من ضرورة حيوانية ضيقة .

لكن بعض الناس ، يحلو لهم ان يتهموا ادبنا المؤتم من غير حق، بانه عقيم لا خير فيه . اما انسانية ابي العلاء المعري ، وثورته الاجتماعية ، ونقده المر للذين ينحرفون عن خدمة الشعب والمجتمع ، فامور مشهورة ، لا حاجة بنا للتعريج عليها ، والوقوف عندها .

وهناك تهمة اشنع من كل اتهام ، وهي ان ادبنا المؤتم هو ادب تملق ونفاق ومدح للارتزاق ..

فالحقيقة التي اريد ان اقررها ، هي ان المديح في ادبنا المؤتم، هو نوع من تمجيد البطولة ، ورفع منار المثل الاعلى ، لان شعر المديح نشأ اصلا لهذه الغاية ، فكان القوم قصدوا به ، حث الهمم، والدعوة الى تبني شيم الرجولة الحق ، من شجاعة ، وكرم ، واباء وعفة ، فاذا كان الشاعر قد توفيء على هذا المديح ، فان ذلك لا ينقص من قيمته ، بل يزيده قدرا، ويوم ملأ بعض الخلفاء فم الشاعر الذي مدحه جوهرا ، فانه كان يرمي من وراء ذلك ان يرفع من شان الشعر في شخص ذلك الشاعر . وما زالت الدول الراقية في عصرنا، تمجد من شان الاديب والشاعر ، لتبرز قيمة الاديب والادب عندها ، فلماذا نقبل ذلك من دول اليوم وننكره على شعرائنا المؤتمين . ورجالاتنا الذين كانوا يطربون للشعر ويكافئون عليه ؟

اجل ان هبات الملوك والامراء للشعراء ـ قديما ـ هي دعوة للاجيال الى الاقتداء بعظماء الامة ، الذين استحقوا ذلك الثناء الطيب . فاذا كان العرب لم ينحتوا التماثيل لرجالاتهم تخليدا لعظمائهم ، فان قصائد الشعراء المجيدين ، كانت تماثيل ، من المعاني السامية ، تخلد مفاخر، ومزايا اولئك العظماء الى يوم يبعثون . وقد انصف الشاعر القائل:

لولا ابو الطيب الكندي ، ما امتلات
مسامع الناس ، من مدح ابن حمدان .

اذا ، فشعراؤنا المؤتمون ، لهم علينا فضل عظيم ، لانهم خلدوا عظماءنا ، ومن الغبن ان نسمي شعرهم نفاقا ، وتملقا واستجداء ، وتزلفا !..

وما دمنا في ذكر المتنبي ، فمن حقه علينا ، وحق الاجيال ، وحق التاريخ والحقيقة ان نذكر ان المتنبي كان داعية عربيا عظيما، وانه كان من هذه الناحية ، شاعرا ملتزما ، الى ابعد حدود

الالتزام ، وقد رفع علم الثورة على الدخلاء من الحكام ، فنظرة في قصيدته التي مدح بها (علي بن ابراهيم التنوخي) تفسر لنا ذلك، اذ يقول :

وانما الناس بالملوك ، وما ... تفلح عرب ملوكها عجم
لا ادب عندهم ، ولا حسب ... ولا عهود لهم ، ولا ذمم
بكل ارض وطئتها امم ... ترعى بعبد كانها غنم
يستخشن الخز ، حين يلمسه ... وكان يبرى بظفره القلم

ونحن ذكرنا هذه القصيدة للمتنبي على سبيل المثال : من غير اختيار ، في حين ان الدعوة الى العروبة ، والالتزام والحكمة ، تحتل جزءا كبيرا من ديوانه الفخم .

ناهيك بما كان يلتزم به المتنبي من الاهتمام بطبقات الشعب ، الامر الذي اشاع اشعاره في اوساط الشعب كلها ، لان تلك الطبقات كانت ترى آمالها والامها في اشعاره لهذا اعجبت بالمتنبي ، ذلك الاعجاب الشديد الذي زرعه وزرع شهرته في قلوب الناس .

التجديد في شعرنا المؤتم :

لقد جدد شعراؤنا المؤتمون في كل شيء ، حتى وصف الاطلال نفسه ، اتخذوا منه رمزا الى معان انسانية ، اذ حولوا تلك الاطلال صورا للفناء ، الذي يسوق كل ما في الحياة والوجود الى الاندثار والزوال المطلق . فقد جعلوا الاطلال صورا تدبيب الفناء وتجسيدا للتلاشي المتدرج ، وقد جدد شعراء العصر العباسي في كل ناحية، وفي كل موضوع ، فمن ذلك ما جاء في قصيدة ابي تمام ، التي مدح بها المأمون :

دمن الم بها ، فقال سلام ... كم حل عقدة صبره الالمام
تحرت ركاب القوم حتى يعبروا ... رجلا ، لقد عنفوا علي ولاموا
عشقوا، فلا رزقوا ، أيعدل عاشق ... رزقت هواه معالم وخيام
وقفوا عليّ اللوم ، حتى خيلوا ... ان الوقوف على الديار حرام
لا مرّ يوم واحد ، الا وفي ... احشائه ، لمحلتيك غمام

الى ان يقول :

هن الحمام ، فان كسرت عيافة ... من حائهن ، فانهن حمام

فهذه صور تتم على تجسيد .

وجددوا في انطاق الجماد اذ افاضوا في الجماد حياة

ومن ذلك قصيدة ابن خفاجة الخالدة في استنطاقه الجبل :

وارعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول اعنان السماء بغارب

وجددوا في ادخال الحكمة في شعرهم ، كما فعل المتنبي :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا.. ... وعناهم من امره ما عنانا

وثولوا بغصة كلهم ، منه وان ... سر بعضهم احيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ... ولكن تكدر الاحسانا ...
وكانا لم نرض فينا بريب ... الدهر حتى اعانه من اعانا ..
كلما انبت الزمان قناة ... ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس ، اصغر من ان ... تتعادى فيه وان تتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا ... كالحات ، ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي ... لعدنا اضلنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز ان تموت جبانا
كل ما لم يكن من الصعب في ... الانفس سهل فيها اذا هو كانا

من تجديد الشعر المؤتم :

ومن تجديد الشعر المؤلم الدعوة الى التحرر والثورة ، وذلك من قبيل الالتزام ايضا ، وحسبنا من ذلك ان نثبت ابياتا من قصيدة (ابراهيم اليازجي) الموثبة ، التي كاد يدفع حياته ثمنا لها ، لو انه اعترف بكونها له :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب ... فقد طمى الخطب، حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالامال تخدعكم ... وانتم بين راحات الفنا سلب؟
كم تظلمون ، ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون ، فلا يبدو لكم غضب،
الفتم الهون ، حتى صار عندكم ... طبعا ، وبعض طباع المرء مكتسب
الله صبركم ، لو ان صبركم ... في ملتقى الخيل، حين الخيل تضطرب
كم بين صبر ، غدا تلذل مجتلبا ... وبين صبر ، غدا للعز يجتلب
فشمروا، وانهضوا للامر، وابتدروا ... لا يصدق الفوز، ما لم يصدق الطلب
بالله يا قومنا هبوا لشانكم ... فكم تناديكم الاشعار والخطب
الستم من سطوا في الارض وافتتحوا ... شرقا ، وغربا ، وعزوا اينما ذهبوا
ومن اذلوا الملوك الصيد، فارتعدت ... وزلزل الارض مما تحتها الرهب
ومن بنوا لصروح العز اعمدة ... نهوى الصواعق عنها ، وهي تنقلب
فما لكم ، ويلكم ، اصبحتم هملا، ... ووجه عزكم بالهون ينقلب
لا دولة لكم ، يشتد ازركم ... بها ، ولا ناصر للخطب ينتدب
وليس من حرمة ، او رحمة لكم ... تحنو عليكم ، اذا عضتكم النوب

وننطلق من موثبة ابراهيم اليازجي الى موثبات الشاعر القروي:

أ ـ وعد بلفور ... ب ـ نكبة دمشق
ج ـ قحط الرجال ... د ـ عيد الفطر

صياما الى ان يفطر السيف بالدم ... وصمتا الى ان يصدح الحق يافمي
افطر ، واحرار الحمى في مجاعة ... وعيد ، وابطال الجهاد بمأتم
بلادك ، قدمها على كل ملة ... ومن اجلها افطر ، ومن اجلها صم

الى ان يقول :

هبوني عيدا ، يجعل العرب امة ... وسيروا بجثماني على دين برهم..

وليس الذي جاء في اشعار شوقي والبرصاني والزهاوي وخليل مطران وحافظ ابراهيم ، باقل في وطنيته وخلوده مما ذكرنا .

ناهيك بما جدده شوقي في تطويع الشعر العربي المؤتم للمسرح، وتطويع القصيدة العربية للقصة عند خليل مطران .

ونعظم قيمة هؤلاء عندي ، انهم لم يلجأوا الى الرمزية المغرقة في الضبابية .

ثورة على القديم :

بعد كل ما تقدم ، علي ان اقرر ، ان البشرية تواجه ثورة عنلية ، شملت كل شيء فلم ترحم ادبا ولا فلسفة ولا سياسة ولا اجتماعا ، وهي ثورة شملت الفكر ، والعمل ، فنحن نواجه الثورة هذه مواجهة فعلية، وقد ضاعت او كادت تضيع في ثناياها ، كل محاكمة نزيهة .. وكان النقاد الثائرين ، لم يعد يهمهم ان يتوقفوا عند حكم قديم ، فقديما قسم الشعر الى :

أ ـ شعر خالص .
ب ـ وشعر غير خالص .

فالشعر الخالص ، هو الذي ينتقل تاثيره من الشاعر الى سامعيه، وقارئيه فهو كالمغنطيس ، الذي لا يجذب الحديد فقط ، بل يكسبه خاصية الجذب ، كما قال (افلاطون) وقد دار حوله الجدل في فرنسة وانكلترا ، في اوائل هذا العصر .

اما الشعر غير الخالص ، فهو الذي حدد القوم عناصره في مايلي: « الموضوع ، الافكار ، معنى الجملة ، ترتيب الافكار المنطقي ، والتدرج في الدلالات على التجربة ، وتفصيل الوصف ، وكل الافكار والمشاعر، والصور المباشرة ، والذين يتعصبون للشعر الخالص يقولون مع (فلوبير) :

« ان بيتا جميلا من الشعر ، لا يدل على شيء ، خير من بيت اقل منه جمالا وان اشتمل على معنى ..»

في حين ان (افلاطون) و (ارسطو) كانا يدعوان الى غاية تربوية

في الشعر ، ومن هنا ، كان ينظر الى الشاعر ، انه قائد فكري لقومه، كان هـذا في بلاد اليونان يوم اتخذت الالياذة كتابا مقدسا للقوم .

وكان ذلك عند العرب في جاهليتهم ، يوم علقت المعلقات في الكعبة ، ونالت من التكريم ، ما نالت اصنامهم ، اقول ذلك ـ على الرغم من كل شك في ذلك ـ لثقتي برواية (ابن خلدون)مع كل هذه الثورة العالمية التي المعنا اليها ، وعلى كل ما اصاب الشعر المؤتم من تنكر وانكار ، لما فيه من خير ، اقرر ان شعرنا المؤتم ، فيه قيم خالدة ومفاهيم جديدة منها :

أ ـ تعبيره عن عواطف الانسان بعمق .
ب ـ انه قد التزم بكل ما يهم عصره التزاما اصيلا مخلصا .
ج ـ جدد في كل ناحية يمكن ان يتناولها الشاعر .
د ـ هام بالطبيعة ، وتفاعل معها ، وانطق جامدهاوصامتها .
هـ ـ جسد الحب ، وارتقى به الى مراتب سامية .
و ـ تفاعل مع الاوضاع ، وطور شعره ، الى حد قرر فيه موقفه من المجتمع والفن ، كما عبر عن ذلك (برتولدبرخت) يوم قرر موقفه من المجتمع والفن قائلا :

« تخليت عن طبقتي ،
واتخذت اصحابا لي ،
اناس متواضعي المنبت »

والشاعر العربي المؤتم ، لم يكن منعزلا عن مجتمعه ، وكانت لغته معبرة واضحة ، على نقيض ما نرى من رمزية غامضة تشير الى ان المفرق في رمزيته ، لا يعدو ان يكون واحدا من ثلاثة :

١ ـ ليس متمكنا من فنه .
٢ ـ لا يدري ما يريد ان يقول .
٣ ـ او هو يتهرب من مواجهة الحقائق التي يدعو الى الالتزام بها.

وما احسن ما قاله الشاعر الياباني (تسودايوكي) من شعراء المائة العاشرة :

« ان للشعر جذرا ، وهو القلب
وان له اوراقا ، آلاف الكلمات »

وعندي ان الشاعر الذي لا ينبع شعره من القلب ، ولا يعرف ان يستعمل كلمات لغته ، ليس شاعرا ، ولو نظم عشرات الدواوين .

ز ـ واجه مشكلات الحياة ، وعانى من الحيرة المرهقة ، وحاول تفسير ما يحدث للانسان فوقف حائرا يسأل نفسه :

أكل ما يحدث للانسان بقضاء وقدر ؟
ام ان الانسان حر في تصرفاته ؟
ام هو مسير ، لا خيار له في امره ؟
ووقف امام لغز الحياة ، ورهبة الموت ، وعالم الروح ،

فهذا ابن سينا يعالج قضية الروح في عينيته الخالدة :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وعالج الشاعر العربي المؤتم الامور يحلل ويعلل ، وصل الى احكام بعد شكوك مضنية رهيبة ، كما وصل المعري بعد شكوكه كلها . يقول في قصيدته التي نعدها رثاء للانسانية :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ، ولا ترنم شاد.

اذ يقول :

خلق الناس للبقاء ، فضلت امة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعمال الى دار شقوة او رشاد
فالليب اللبيب ، من ليس يغتر بكون مصيره للفساد

ح ـ ادخلوا في شعرنا المؤتم التامل والحوار والحكمة
ط ـ وان شعراءنا المؤتمين عرفوا الالتزام فطرة ، قبل ان تفرضه الواقعية الاشتراكية ، والوجودية .

ي ـ الشاعر المؤتم آمن بان خير الشعر اصدقه كما قال حسان بن ثابت .. ونقش بقوله ما شاع حتى ملأ الاسماع ، من ان خير الشعر اكذبه .. فقال حسان :

« وان اشعر بيت انت قائله بيت ، يقال اذا انشدته صدقا »

ومعنى وقول حسان ان الكلمة الصادقة هي نضال في سبيل حرية الانسان وكرامته ولا يمكن ان يكون للكلمة قيمة ، الا اذا كانتصادقة كل الصدق .

وقد كان (عمر بن الخطاب) وهو الناقد البصير ، يقدم (زهير ابن ابي سلمى) على الشعراء لانه صادق ، فهو ، لا يتعاظل ولا يتتبع حوشي الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه ..

الشعر الحديث يتكىء على الشعر المؤتم وعلى التراث الشعبي :

لا اريد ان اتهم الشعر الحديث ، لكني اريد ان اقرر ان الشعر الحديث ، كثيرا ما يتكىء على الشعر المؤتم ، او على التراث ، وهو يريد الواقعية ، ولكي اقدم البرهان المادي ابتدىء بشاعر الاردن الاصيل « مصطفى وهبي التل » الذي لقب نفسه ب (عرار) واذكر قصيدته البارعة (هب الهوا) التي عارض فيها ، وتاثر باغاني الدارسين (هب الهوا يا ذاري)

هب الهوا وشجاك ان نسيمه في ضفة الاردن ريح سموم

ويقول :

هب الهوا وانا وانت يهمنا قبض المعاش بيومه المعلوم
وحكومة السفهاء لم نعرف لها وجها بهذا الوطن المشؤوم
باعوا البلاد وحضرتي وجنابكم لكن بلا ثمن الى حاييم

وقال في قصيدته (امالي عرار)

سالت البلبل الغريد يا (ناعور) وشلونه ؟

اي ، ما لونه، ومعناها كيف حاله؟

وقال :

من لم يكن ذئبا ، فان زمانه يغري به العشرات من ذؤبانه..

وقد ضمنه المثل الشعبي القائل :« اللي ما هو ذيب تاكله الذيابة»

اما شعراء العراق ، فقد استعانوا بالتراث الشعبي :

أ ـ الفاظا ب ـ وامثالا
ج ـ واساطير ومعتقدات ، من ذلك ..

استعمال السياب كلمة (خطية) بمعنى الاشفاق :

بين احتقار وازورار
.... او (خطية)

واستعماله كلمة (طاب) بمعنى شفي من مرضه :

ويا حديثك عن « آلام » يلذعها
بعدي فتسال عن بابا : « اما طابا »

واستعمال البياتي للمثل الشعبي : « اضحك بعبك »

وها انا اضحك في عبي وامضي تاركا عباءة الجليد

وهذا السياب يضمن شعره اعتقادا شعبيا وهو قصة ياجوج وماجوج بقوله في علوائه (الومس العمياء) .

ياجوج يغرز فيه ، من حنق ، اظافره الطويلة ،
ويعض جندله الاصم ، وكف ماجوج الثقيلة ،
تهوي كاعنف ما تكون ، على جلامده الضخام ،
والسود باق لا يثل .. وسوف يبقى الف عام ،
لكن (ان ـ شاء ـ الاله)
ـ طفلا كذلك سمياه ـ
سيهب ذات ضحى ويقلع ذلك السور الكبير .

ولعل اعظم اعتماد صارخ على التراث ، ما صنعه المرحوم ايليا ابو ماضي ـ وانكره ـ اذ اتكأ على قصيدة (علي الرميثي) في قصيدة الطين ، التي عليها قامت دعائم شهرته ، فقد كان المرحوم ابوماضي ينظم احيانا اربعة ابيات ، لكي يؤدي معنى بيت واحد من قصيدة الرميثي :

قال الشاعر الرميثي :

المنوه اللي بضميرك وهقوة ... لي مثلها باشين بالقلب نهواه
نحلم حلوما حلوة يوم نرضى ... وتمر يوم السعد ما بان مالطاه

وقال ابو ماضي :

لك في عام النهار اماني ... ورؤى والظلام فوقك ممتد
وبقلبي ، كما بقلبك ، احلام حسان ، فانه غير جلمد
اماني كلها للتلاشي ؟ ... وامانيك للخلود المؤكد
لا فهذي وتلك تأتي وتمضي ... كذوبها ، واي شيء يؤيد ؟

فخلاصة ما اريد ان اقول : ان الشعر المؤتم ، اشتمل على مفاهيم العصر ، وكان في كثير من المواقف معينا للشعر الحديث ، كما اتكأ الشعر الحديث مع التراث الشعبي .

اجل ، لقد احتوى الشعر المؤتم على مفاهيم العصر الحديث ، من غير تسمية الاصطلاحات ، حتى الثورة على عمود الشعر ، عرفها الموشح الاندلسي ،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ،

عمان ـ الاردن — روكس بن زائد العزيزي

اهم ركائز البحث

ـ تطور عمود الشعر عند العرب ـ محاضرة لـ (روكس بن زائد العزيزي) نشرت في :

١ ـ مجلة الايمان ـ النجف الاشراف
٢ ـ مجلة الاقلام ـ بغداد
٣ ـ رسالة المعلم ـ عمان / الاردن
٤ ـ مجلة افكار ـ عمان / الاردن

ـ فريسة ابي ماضي ـ لـ (روكس بن زائد العزيزي)
ـ عشيات وادي اليابس ـ ديوان مصطفى وهبي التل .
ـ ديوان المتنبي ـ شرح البرقوقي .
ـ شجر الغابة الحجري ـ طراد الكبيسي
ـ ديوان ابي تمام ـ طبعة بيروت
ـ ديوان البحتري ـ طبعة بيروت
ـ الشعر / مجلة فصلية ـ تصدر عن دار الاذاعة والتلفزيون بالقاهرة .
ـ ديوان الشاعر القروي ـ طبعة صنبول البرازيل
ـ معروف الرصافي لـ ـ مصطفى عبداللطيف السحرتي ، قاسم الخطاط ، محمد عبدالمنعم خفاجي
ـ الزهاوي ديوانه المفقود ـ هلال ناجي
ـ المجاني الحديثة ـ فؤاد افرام البستاني
ـ مقدمة ابن خلدون ـ طبعة بيروت
ـ الشوقيات ـ لاحمد شوقي
ـ ديوان الخليل ـ لخليل مطران
ـ النقد الادبي الحديث ـ الدكتور محمد غنيمي هلال
ـ قاموس العادات ـ اللهجات ـ والاوابد الاردنية ـ لـ (روكس بن زائد العزيزي)
ـ ابن الرومي ـ حياته من شعره (لعباس محمود العقاد)
ـ المعلقات السبع ـ شرح الزوزني
ـ ديوان زهير بن ابي سلمى ـ طبعة بيروت .

الادب المعاصر والتراث

تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ ـ

ليساوي بين الجنسين مساواة تامة . ولسنا ندعو دعوة عامدة ، عندما نتبنى المعاصرة الى استيراد عادات ومبادىء سيئة كريهة ، ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة قد لا تترك لنا احيانا الا خيارا ضيقا ، بين ما ناخذ وما ندع .

وليس في مقدورنا ان نضع رجلا في التراث واخرى في المعاصرة ، كما يقترح الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه الجديد « ثقافتنا في مواجهة العصر » ولا استطيع على حد قوله « ان احصر النظر في الظواهر وحدها في ساعات حياتي العلمية ، وان اخلع عن نفسي عباءة العلم في الساعات الوجدانية » .. لكي افصل « فصلا حادا » بين حياتي هنا وحياتي هناك ، بل يجب الانسجام مع روح العصر ـ عصرنا الذي سيصبح ادبه تراثا لنا ونحترمه كما نحترم الان تراثنا القديم . ولا مانع بالطبع من ان نناقش بعض النتائج السيئة التي ستدفعنا اليها المعاصرة حين يكون ذلك ممكنا دون اعمال وتزلق . ان الديمقراطية والاستقلال الاقتصادي للمراة مثلا يدفعانها الى طلب المساواة مع الرجل . ويدفعها الى ذلك ايضا مستوى الانتاج الذي يجب ان نبز به خصومنا او الدول الاخرى . فكيف السبيل اذن الى وقف شيء من زحف المراة في هذا الاتجاه ، لو كان للمجتمع نفع في وقفه ، وقد قبلنا الديمقراطية والانظمة الاقتصادية الحديثة وتحديات العصر القاسية !؟

وكلمة اخيرة موجزة جدا تحيط بما ذكرنا كله ، وهي ان تطور الطبيعة والاحياء والانسان والحياة الاجتماعية الى الافضل على وجه هذه الارض امر محتوم . تلك هي مقالة التطور العضوي ومقالة الجدلية بحتميتها التاريخية . لماذا الى الافضل ؟ البحث طويل وليس هنا مكانه ، ولكن التطور والجدلية جاءتنا على هذا النحو الايجابي ، التقدمي وكان يمكن ان تجيئنا على نحو آخر . فمن لم يسر من ادبائنا المعاصرين او الكتاب والمفكرين مع سنن هذا الركب ، ركب التطور الى الامام والافضل والاعلى ، فقد حبط عمله واصابه الجمود والخذلان ، ومن عرف هذا السير وآمن به وجاهد في عالم الفكر او الكتابة او الادب على اساسه فقد بقي ونفع امته ، واذا تجاوز هذه الحدود فقد نفع البشرية جميعا ، وكان من الخالدين .

عمان ـ الاردن — محمد اديب العامري